قصة قصيرة:

الأعشاب

نعمان مجيد

تلك الرائحة، رائحة الآسيات أو «الأواسي»[1] هي التي كانت تنبعث من ثغور وريقات داكنة، وبالتحديد من جهة الحقل الشمالية إذ تنتصب بعض أعشاب داخل أصص الزهور الفخارية أو البلاستيكية الملونة. إن العشب قد نما وبي رغبة خفية لأن يرى جدي سلمان الوادي ذلك بعينيه، لكن جدي الذي لم تره عيناي يعرف جيداً ما معنى أن يكون العشب نامياً. وهذا العشب الذي أراه الآن قد نما وإخضرت أوراقه حتى أخذت السيقان النحيفة تتسلق جدار الحقل وتتشابك مع خطوط الأسلاك الشائكة التي كانت بمثابة سياج أو سور يحيط بالحقل من كل جانب، ولم تكن المسافة شاسعة أو بعيدة تلك التي تحيط بالأزهار والأصص والغرف والأشجار الصغيرة، لكن جدي الذي لم يعرف ما طول المسافة بين البيت والبستان كان يقطع المسافة بين البيت وآخر نقطة على صهوة جواد ولا يستغرق منه ذلك غير ساعة من الزمن أو أكثر بقليل. يبدأ التجوال اليومي دون أن يصل إلى نقطة أسلاك أو نقطة حدود، يلعب الهواء بوجهه ويحرك عباءته حول كل ما يحيط برأسه، ويفتح منخريه على اتساع يعبّىء صدره بالرائحة التي تملأ رئته، إن العشب قد نما في الحقل وزحفت ذوائبه النحيفة وإمتدت فوق رؤوس الأسلاك المدببة وبدأت تغطّي وجه السياج وراحت تتلوى ثم تستطيل بامتداد متى ما واجه عائقاً تعرج بحافات متعرجة ثم تمضي في سيرها، قد يحركها الهواء أو رقة النسائم فتهتزّ مرتعشة، ولأن الأوراق كانت صغيرة والسيقان لم تزل نحيفة، فإن خشيتي لم تزل كبيرة وتختلج هماً في داخلي أنا مهندس الحقل الزراعي هذا. تذكرني نحافة السيقان بجدّي الذي كثيراً ما امتدّت يداه ليقتلع كل ما يحيط بأشجار النخل من أعشاب ضارّة. ربما كان يقول مع نفسه: هذه أعشاب ينبغي أن ترمى بعيداً. تمدّ يديك، تطاوعك الأعشاب حين تسحبها من وجه الأرض. ترتعش أعشاب الأواسي بمجرد أن تهبّ حركة هواء ضئيلة فتنتشر رائحة ما في أرجاء الفسحة الأرضية المنكشفة للظهيرة المشمسة، وتدفع نافورات الماء رذاذاً متطايراً إلى أعلى. هذا يوم يا جدّي يتحول فيه الحقل كله إلى رائحة، بل إنها تتعدّى متجاوزة أرجاء الحقل مندفعة إلى الزقاق القريب من الحقل. هذا يوم يا جدّي مشحون بالألم والفرح معاً وأظنك لن تعجب: ألم أكن أنا سلمان الصغير من صلب سلمان الوادي؟ فليس غريباً أن يتدفق الرذاذ من الماء منصبّاً في الفراغات ثم سرعان ما يهبط نازلاً فوق سطح الأرض وينحدر منساباً إلى أسفل السيقان النحيفة، ومتجمعاً ثم مستقراً ببطن الأصص فتندفع الرائحة أكثر وتتصاعد، تتسلق أسطح المنازل فتدخل إلى البيوت من الشبابيك أو النوافذ أو الأبواب، ثم ما تلبث أن تتطاير في أجواف الشوارع المزدحمة بالناس والسيارات وتغص الساحات برائحة محبّبة تستنشقها بود صاغر عميق يتيحُ لها أن تدخلُ كل زوايا القلوب دون استئذان. إنهم الآن يشعرون بالنشوة التي تفيض بها الصدور ولم يستطع أحد منهم أن يميز إذا كانت هذه الرائحة هي رائحة قداح أم رائحة بطيخ، أو رائحة أبصال النرجس الجبلي. كان العبق مثل عبق زهرة الرازقي أو أشبه به. زهرة الرازقي التي كنت أقدمها إلى الآنسة أمينة كل صباح. ألم أخبرك يا جدي أنه يوم مشحون بالألم والبهجة معاً حتى أن الرجل الأصلع، الرجل البدين، مدير الحقل قد أصيب بالذهول عندما لطمت تلك الرائحة منخرية؟

أي نوع من الأعشاب هي إذن! أهي أعشاب أفيون أو

الكينا. أو الكافين؟! أنا نفسي لم أكن أتوقع أن تكون لهذه الأعشاب مثل هذه الرائحة. غير أن أفكار الرجل الأصلع مدير الحقل دائماً سُود، وأن تساؤلاته مليئة بالخبث. ربما كنت أشعر بحساسية عالية إزاءه كونه رئيسي الذي يراقبني باستمرار. ربما لأن جدي كان وحده الذي يصول ويجول في البستان ليل نهار، يسرح ويمرح به طولاً وعرضاً، لا أحد غيره فيه، لا أحدَ يبعث في نفسه الخوف، ولم تكن جدتي «أمينة العلوية» تخشى أحداً في قرية «الرجيبة» كلها بل إن الناس هم الذين يتسابقون في طلب ودها ورضاها وينذرون النذور لها ويتبركون بها. لكن الآنسة «أمينة البابلي» مسؤولة غرفة المختبرات في الحقل هي التي جعلت الرجل الأصلع البدين يتمادى في تساؤلاته. كانت تخافه... تخشاه أكثر مما يجب! ربما لأنها لم تكن تتوقع أن يحدث هذا الذي حدث بهذه السرعة العجيبة. العشب قد نما، والرائحة تفوح، ولكنها أحجمت عن أن تصفق راحة يديها من الفرح، إذ ليس بمقدور امرأة مثلها أن تفهم أمراً بهذا التعقيد رغم أنها تحب الصباحات الندية والنهارات المشمسة وخضرة الزرع وتدفق المياه. إن مدير الحقل ضاق ذرعاً بكل شيء، ولم يحتمل صبراً فطلب من «أمينة البابلي» أن تتبعه وتجيء إلى غرفته. ألقت ما كان بيدها وأعادت الدوارق الزجاجية إلى مكانها في الثقوب المنتشرة على اللوح الخشبي أخذتها استغراقة مؤقتة وفكرت إنْ ذهبت إليه فلتذهب بلا رائحة، فاتجهت إلى المغسلة القريبة منها. أدارت رأس الحنفية فانزاح الماء فأخذت تفرك يديها بالماء والصابون، ثم أسقطت دفقات الماء فوق وجهها الأبيض وتناولت المنشفة المعلقة في الشماعة وأخذت تنشف يديها ووجهها. وفكرت قبل أن يجف البلل منها أن الإنسان يحتاج إلى شيء منطقي لكي يبرر أمراً أو يدحض الآراء التي يخمن أنها تدور حوله وتحيط به، ولهذا حاولتْ أن تتخلص من تلك الرائحة قبل أن تطأ قدماها أرضية غرفة المدير، ولم تنس أن تصفع تنورتها ثلاث أو أربع مرات حتى أنها لم تأبه أو تتنبه أن ضربات يدها قد رفعت أذيال تنورتها فانكشفت ركبتاها البضتان متناسقتين، ما بين الفخذ والساق، مسحت شعرها القصير بأطراف أصابعها وأصلحت بلوزتها الزرقاء ثم طرقت باب الغرفة. سمعت صوت المدير يأذن لها بالدخول. لك يا جدي أن تتصور أيّ خوف كان يعتريها في تلك اللحظات، لم أخبرك يا جدي بأنه يوم حاسم ومشحون بالغرابة. أشار لها مدير الحقل أن تغلق الباب خلفها ولم يُشر عليها بالجلوس. ظلت واقفة أمامه دون أن تتفوه بشيء. أين كنت إذن في هذا الوقت؟! كنت أستحضر حكاية اللسع الذي تعرضت له جدتي أمينة يوم كانت تمشي في أرجاء بساتين الرجيبة. صرخت أمينة العلوية حين هاجمتها أسراب النحل والدبابير فوجئت أن كتلة الحشرات المتطايرة تحوطها. لكنها صرخت! ولم تفتح عينيها عن إغماضة قليلة حتى وجدت سلمان الوادي يقف بقربها كما لو أن الأرض قد انشقت وبعثته فجأة من داخلها وأخذ يسحق أسراب النحل القارص بكلتا يديه فيحيلها إلى ذرات مهشمة؛ لكن أمينة البابلي لم تصرخ بل ظلت متسمرة في مكانها حتى نهض الرجل الأصلع واقفاً إزاء المنضدة الحديدية وأطلق صوتاً أجشّ: ماذا تعرفين عن تلك الرائحة. إني تشممتُ رائحة.. ولم تدرك لحظتها أن الرائحة كانت تنبعثُ من أنفاسها المتوترة. لم تجبه. أخذته دهشة مؤقتة وإنتزع جسده من وراء المنضدة واقترب منها إني أشتم رائحة. إني أخشى عليك، قد تكون رائحة أعشاب ضارة وهي أنىٰ لها أن تعرف إن كانت ضارة أو نافعة، كل الذي تعرفه أن لهذه الأعشاب رائحة عبقة محببة وتبعث عطراً زكياً وتمنت لو أن الماء والصابون قد أزالا الرائحة عن يديها.. عن وجهها لو أن الرائحة ابتعدت عن تنورتها أو عن شعرها. لم تجبه بشيء وخرجت إليّ، كنت واقفاً أنتظرها عند باب غرفة المختبرات كان وجهها كئيباً بلا ألق. لم أقل لها لا تجزعي فقد أزفت ساعة الرحيل فلن ترى بعد هذه السويعات هواناً أو ألماً. آثرت أن أكتم ما بداخلي لكن عينيها انشغلتا بزوغان قلق ولم يستقر بصرها بل ظل ملتصقاً بهيكل الرجل البدين الذي ابتدأ جولته الصباحية بين أرجاء الحقل حتى توقف عند الأصص المخصصة للتجارب النباتية الجديدة. كم أثقلني بمثل هذه الجولات. ربما لاحظ انبثاق الأعشاب عبر الأحواض الزجاجية وأدرك أن العشب قد نما فهو لم يزل يُحني قامته كما لو أنه يتشمم شيئاً ما. ينبغي أن أذهب إليه لا لأوقفه عند حدِه بل لأستعجله أن ينجز كتابة أمر انفكاكي ونقلي إلى حقل آخر. تهرب إذن؟! تنهزم إذن؟! هل كان جدك يوماً إنهزامياً؟ قارن بين قرى الرجيبة وبين مدىٰ الحقل، قرى الرجيبة الرحبة، ومدى الحقل الضيق، ولهذا أحسست ان «أمينة البابلي» تريد مني أن أمكث وقتاً أطول. لم تطلب مني ذلك لكني أدركت بمجرد أن حولت بصرها عن جسد الرجل البدين ولم تعد عابئة بنظراته المتلصصة تريد هي أو أريد أنا أو نريد كلانا أن نمسك بهذه السويعات المتبقية. وهل أنت راحل حقاً؟ نعم يا أمينة. إنها سويعات ثم أجلو عن هذا

المكان. هي سويعات من نوع خاص تشبه تلك السويعات التي تمتد منذ الصباح حتى الظهيرة التي كان جدي سلمان الوادي يعود فيها من «الهندية» إلى قرى الرجيبة. يكفيه أنه رأى بعينيه جدتي أمينة العلوية. كان هذا قبل أن يتزوج منها. هي سويعات دم ينزف، دمي أو دمها.. لذا بقيت إلى جانبها أتطلع إلى ارتعاشة شفتيها وأحدقُ في آخر ابتسامة لها. هذا آخر رنين جرسي يتدفق في أذني ينطلق من نبرات صوتها المرتعب. إنما عن تلك الأعشاب كنا نتحادث، إنما عن تلك الرائحة المنبعثة من الأعشاب كان الحديث بيننا يدور. هي أعشاب الأواسي التي أحدثت في القلب رنيناً كرنين الأجراس ولا يسمع أحد هذا الرنين إلا الذي تنشقَ الرائحة بعمق، مثل أمينة، ومثلي!.

ولكنك لم تخسر حياتك مثل جدك. أعني إنك لم تضع حياتك في كف الموت. إن ملءَ كفي لحظات يا جدي وأريد لها أن ترتاح من هذا العبء. تعرف أني لا أنوي حتى أن ألقي عليها تحية وداع لأبدو غير جزع، إني أتماسك، أبدأ في الظاهر فقط. ولكني أريدها أن ترتاح من الصداع الذي أثقل رأسها الصغير، الصداع الذي لم يعد ينفع معه كل حبوب الأسبرين أو البرايستول. أنت إذن لست مثل جدك. ألم تخبرك أمك، يوم دخل الأتراك قرية الرجيبة. كانت السماء ملبدة بالغيوم وفرّت أسراب الدجاج والديكة مذعورة خائفة. أمسك الجندرمة الترك بجدك سلمان وطلبوا منه أن يلتحق بأعمال السخرة. كان النهرُ هائجاً وينذر بالفيضان، وسيقَ الفلاحون عنوة يحملون أكياس التراب ويعملون السداد. رفض جدك أن يسخره رجال الجندرمة وامتنع، لكنهم ربطوا يديه بقوائم الحصان. وأوثقوا رجليه بحبل سميك. إنهالوا بالسوط على جسد الحصان فانتفض راكضاً. أخذ الحصان يجر جسد سلمان الوادي جراً، ويسحلهُ سحلاً على الأرض، ظلَّ يدور به ويدور وكلما شعر الحصان بالتعب والإعياء ساطوه بقوة ليتحرك فيمسح وجه سلمان الأرض، وقدماه تتركان أثراً ترابياً طويلاً وراءهما بينما أخذ الدم يتقطر من كل أجزاء جسده. وفي المساء فكوا وثاقه وتركوه أمام باب الكوخ الطيني فغشي عليه. ألم أقل لك أنت لست مثل جدك! ولكني من صلبه ودمي ينزف دون أن يراه أحد. وهل رأى جدي يوماً رجلاً محكوماً بالإعدام؟ هذه السويعات بل هذه اللحظات تشبه لحظات رجل حكم عليه بالموت شنقاً. وهل رأى جدي أعواد مشانق، أو حبالاً ليست لتكبيل اليدين بقوائم الحصان بل هي حبال لخنق الرقبة، ولهذا طويت بيدي أكوام أزاهيري. غير أن الرجل الأصلع البدين أخذ يمشي ببطء ويخطو على طرفي حذائه لكي لا يحدث صوتاً، لكني أحسست وقع خطاه يقترب دون أن ألتفت إليه فقد توقعت ذلك لأن الآنسة «أمينة البابلي» طلبت مني بحركة من عينيها أن أتنبه إلى ما ورائي أو أتوقف عن التحادث معها. خلسة يتقدم كما لو أنه يوهم نفسه بأنه ضبطنا واقفين معاً حتى إقترب تماماً ومدّ يده وأعطاني أمر نقلي. مشيت متحركاً باتجاه الباب الخارجي للحقل، وقبل أن أنتزع جسدي منه سمعت صوتاً يطرق أذني، صوتاً يناديني، توقفت قليلاً وانتظرت. أعرفه هذا الصوت. لحقت بي أمينة وتوقفت بقربي وألقت نظرات تمسح بها جسدي كله ثم مدت يدها إليَّ. كنت أظن أنها تريد أن تصافحني لكي تودعني.. مددت يدي إليها. تلاصقت يدانا فشعرت بحبات ناعمة صغيرة تنداح من بين أصابعها وتسقط في راحة يدي. أدركت أنها بذور أعشاب الأواسي أو حبات السوسن أو النعناع أو أنها بذور كل الروائح.

بغداد

---

(١) الأواسي: اسم النساء اللواتي يضمدن الجرحى في الحروب الإسلامية.